الملكة اللغوية عند مالك بن نبي
مقاربة لسانية لنماذج تطبيقية

راضية بن عريبة [1]

ملخص :

لقد درس علماء اللغة قديماً و حديثاً و حتى اللسانيين منهم مصطلح الملكة اللسانية (اللغوية) من شتى جوانبها المختلفة. و في مقدمتهم العلامة الجزائري "مالك بن نبي ".

فلكلّ إنسان ملكة يمكن أن نطلق عليها "ملكة الكلام" و يتعذر استعمالها مباشرة إلا إذا توفر للمرء شيء آخر من الخارج هو اللّغة ،و لهذا اختلف تصور الملكة عند علماء اللغة، وهنا سنحاول إبراز نظرة ابن نبي للملكة، فكيف عرّف لنا الملكة اللغوية و ما أبرز طرق تحصيلها؟

الكلمات المفتاحية: اللغة – الملكة اللسانية- الكلام- الفكر – مالك بن نبي .

[1] **جامعة حسيبة بن بوعلي –شلف– كلية الآداب و اللغات، قسم اللغة العربية وآدابها.**

1 :تعريف الملكة اللّغوية عند ابن نبي:

يرى ابن نبي أنّ الحضارة ليست كل شكل من أشكال التنظيم في الحياة البشرية، و لكنها شكل نوعي خاص النامية، حيث يجد هذا الشكل نوعيته استعداد هذه المجتمعات لأداء وظيفة معينة ،لا يكون المجتمع المتخلِّف في حالة تكيف معها ، لا من حيث رغبته و لا من قدرته ، و بعبارة أخرى لا من حيث أفكاره و لا من حيث وسائله[2]. و هذا يعني أن المجتمع لا يمكنه مواكبة أو مسايرة الحضارة إلا إذا كان الفرد يملك قدرات لغوية أو ملكات فكرية هائلة تساهم في ذلك النّمو أو تطوّره .

فالله سبحانه عز وجل ، قدر لكل خلقه في أحسن تقويم و قد أحسن تقويمهم ليسير طبق سنن معينة تحقق حاجاتهم البسيطة و المعقدة لضمان بقائهم ، فقد للحيوان مجموعة من الغرائز تتكفل ضمان حياته، لكنه عز وجل فضّل الإنسان بشيء هو العقل ، يتصرّف به لضمان حاجاته في العيش اليوم وفي مراحل التاريخ، لكنّه إذا وصل مجتمع ما في طور من تاريخه إلى تعطيل نشاطه الفكري بحجج واهية ، كتلك الحجج التي كنا قبل أربعين عامًا أو نصف قرن نسمعها في الجزائر مثلا، وكما هي قائمة أو يجري مفعولها على العقول في البلاد الإسلامية كافّة . وذلك فيما يخصّ القرآن الكريم تفسيرا لآياته، إذ أصبحوا يعلّقون على كلّ اجتهاد في تفسير القرآن الكريم[3]، بكلمة تحدُّ من كلّ نشاط وتعطِّل العقل باعتباره شيئاً غير ضروري و غير لازم للحياة البشرية.[4]

إنّهم يقولون إن الاجتهاد في التفسير للقرآن خطأ، والخطأ فيه كفر، وهذا يعني فيه وقفٌ وسدُّ باب الاجتهاد، وتعطيل الفكر نهائيا، فإذا أردنا أن ندرك مدى خطورة هذا التعطيل يجب أن نقارنه بتعطيل آخر .

ومن هنا يتضح لنا أن ابن نبي اهتم بالملكة اللسانية من حيث أنها خاصة بكل إنسان أو فرد و يعني ذلك قدرته على كيفية تحصيل هذه اللغة و كيفية استخدامها في حياته اليومية والقدرة على تميزها من حيث الجودة والفساد فإذا كان " ابن خلدون " قد تحدث في مقدمته الملكة اللسانية كصناعة، فإن "ابن نبي " قد اهتّم بجانب الثقافة على أنها العنصر الأساسي في تكوين الملكة اللغوية للفرد لتحصيل متطلباته.

فالثقافة عند " ابن نبي " هي صعيد من الفكر، لا صلة له بالمستوى الدروس المنقلة سواء في نوعها أو في مداها ، أو في كميّتها إنّها كفاءة التّلقي والتّعليم، إنّما ربّما الذي يبقى يحينما ننسى،[5] الذي تعلمناه ، إنها على الأخص ما يجب أن نملكه أولا كي نتعلم. [6]

---

(2) مالك بن نبي – مجالس دمشق –سوريا – دمشق – دار الفكر – ط 1 – 2005- ص 34.

(3) مجالس دمشق – مالك بن نبي – ص 51.

(4) المرجع نفسه – ص 52.

(5) عمر كامل مسقاوي – نظرات الفكر الإسلامي –مالك ابن نبي – دار الفكر – 1965- ص 42.

(6) المرجع نفسه ، ص 42

وبهذا فهي ظاهرة ناجمة عن البيئة،[7] فالبيئة بمثابة الرحم بالنسبة إلى القيم الثقافية ، بحيث يمكن أن نعتبر الثقافة نفسها كبيئة مكونة من الألوان والأصوات والأشكال والحركات والأشياء المأنوسة ، والمناظر والصور والأفكار المتفشية في كل اتجاه. [8]

هذا يعني أن العامل أو المحرك الأساسي في اكتساب اللغة لدى الفرد هي البيئة. و يواصل ابن نبي حديثه عن الثقافة وأهميتها بجعلها محددة بواسطة المعطى البشري أو بالذات إلا أن المشكلة بالنسبة إلينا تمثل قضية ذات نسق عملي .

فنحن نريد اكتساب الفعالية الضرورية لنا والتخلص من وجود عدم فعاليتنا الحالية ، بحيث يتعين علينا أن نكون رصيدنا الثقافي الفعال و أن نضفي رسبنا السلبي، [9] حيث نجد بعض العائلات كانت ترسل بأطفالها إلى المدرسة لا لكي تعدهم للقيام ببعض الواجبات المعينة ولكن لكي تهيأهم للحصول على بعض الفوائد المعينة. [10]

إلى جانب هذا يشير" مالك ابن نبي" إلا أن مشكلة الثقافة من الوجهة التربوية هي في جوهرها مشكل التوجيه الأفكار، ولذلك كان علينا أن نحدد المعنى العام لفكرة التوجيه ، فهو بصفة عامة قوة في الأساس وتوافق في السير، ووحدة في الهدف فكم من طاقات و قوى ضاعت فلم تحقق هدفها لأنها تستخدم ولأننا لم نعرف كيف نكتلها. [11]

فالتوجيه هو تجنب الإسراف في الجهد و في الوقت، فهناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية الصالحة لأن تستخدم في كل وقت. والمهم هو أن ندير هذا الجهاز الهائل، المكون من ملايين السواعد والعقول في أحسن ظروفه الزمنية و الإنتاجية.[12]

كما يقف " مالك " عند نقطة أساسية مفادها أن اللغة تتعرض إلى أمراض و هذا ما جعله يبرزها حيث يقول : " ومما زاد الطين بلة في تلك الفترة أن الجبهة الشعبية كان لها على الحياة العامة الجزائرية نفس التأثير الذي كان لها بفرنسا و بوجه خاص .لقد فتحت في الجزائر محابس الكلام ، فاستولى على كل فرد داء الكلام ، كلامه، أو كلام جاره ...وإنّه لداء قتال".[13]

أي أنّه أثناء الفترة الاستعمارية، ونتيجة الاختلاط وتزاوج اللغتين العربية و الفرنسية أصبح هناك فساد في اللغة أو ما نسمّيه بالملكة اللسانية.

---

(7) مالك ابن نبي – آفاق جزائرية –مكتبة النهضة الجزائرية – ص 119.

(8) المرجع نفسه – ص 125

(9) مالك ابن نبي- أفاق جزائرية –ص 108

(10) المرجع نفسه- ص 111.

(11) مالك ابن نبي – مشكلة الثقافة –دار الفكر – ط 4 – 1984- ص 69.

(12) المرجع نفسه- ص 69

(13) مالك ابن نبي – مذكرات شاهد القرن (الطالب)- د ت – ص 262.

ويضيف إلى كلامه ، أنه منذ استولى مرض الكلام فقد تكّبدنا من الخسائر التي لا تحصى في الرّصيد اللغوي، بحيث أصبح المجتمع سفينة تائهة على عكس ما مضى، كانت الأفكار نقية صافية والنوايا خالصة صادقة والقلوب رحيمة خيِّرة ، فاستحال كل ذلك إلى الخلط و الخبط و التباغض و الانتهازية و الثرثرة. [14]

وخلاصة القول أن ميادين معركة الثقافة والعقل ميادين لا تعد بل تشمل المجتمع في حياته و في تربيته في معايشته وفي تفكيره...بل كل ما تصبح به الحياة حياة إنسانية كما عرف الإنسان منذ كان على وجه هذه المعمورة[15].

فالثقافة هي التعبير الحسّي عن علاقة الفرد بهذا العالم ،أي بالمجال الرّوحي الذي ينمّي فيه وجوده النّفسي فهي نتيجة هذا الاتصال بذلك المناخ ، فالفرد إذا ما فقد صلته بالمجال الحيوي قرّرنا أنّه مات موت ماديّاً، وكذلك الأمر إذا فقد صلته بالمجال الثّقافي فإنّه يموت موتًا ثقافيًا [16].

2: العوامل المؤثرة في نشاط الملكة عند مالك بن نبي :

1-الطفل والأفكار: لا يستطيع الإنسان المنعزل أن يعيش طويلاً في وحدته دون آن يضع لنفسه وفي فترة من الزمن محدودة بالضرورة التجربة الأزلية التي بها يتكيف بها المجتمع مع بيئته .

فإما أن تبدأ مغامرته انطلاقا من صفحة بيضاء خالية من الأفكار (مثل قصة حي بن يقضان)، وإما انطلاقا من صفحة بيضاء خالية من الوسائل والأشياء فمهما تكن درجة تجريده ونموذج الثقافة الذي يمثله فإن نشاطه يخضع دائما في ضمان بقائه لتطورات نفسية بدنية ، نرى مثلها في سائر أشكال النشاط البشر.[17]

والشكل الأبسط لهذا النشاط يتجلى في عمل الحرفي المنكب على عمله والمقص في يده بالحارث المنحنى على محراثه ، بالجندي المسلح ببندقيته.

في سائر هذه الحالات ، فالعمل الحرفي الزراعي أو الحربي يتم انطلاقا من عنصرين ضاهرين الإنسان والآلة. [18]

لكن هذين العنصرين يحجبان حقيقة أخرى أكثر تعقيدا ، ذلك أن العمل لا يتم فعليا إلا في ظروف تتوافق بالضرورة مع سؤال "كيف" و " لماذا".

فنحن لا نعمل كيفما اتفق حتى لا يصبح العمل مستحيلا ولا نعمل بغير سبب حتى لا نمارس عملا عابثا.[19]

---

(14) مالك ابن نبي- مذكرات شاهد القرن (الطالب)- ص 363

(15) المرجع نفسه – ص 363

(16) مالك ابن نبي – مذكرات شاهد القرن (الطالب)- ص 364

(17) مشال زكريا- بحوث السنية عربية –دراسات لغوية اجتماعية نفسية مع مقارنة تراثية-لبنان-بيروت-دار العلم –ط1-1993-ص65-66.

(18) نعمان بوقرة- المدارس اللسانية المعاصرة- عنابة -2006-ص139

(19) نعمان بوقرة- المدارس اللسانية المعاصرة- 139

فالعمل إذن لا يمكن أن يتحدد خارج خطة تحتوي إضافة إلى عناصره الظاهرة عنصرا فكريّا ممثَّلا لمسوغاته ولأنماطه التنفيذية التي تلخّص كل تقدم اجتماعي وتقني لمجتمع ما يميّزه عن غيره من المجتمعات .

فالفرد بمقدار ما يندمج في المجتمع الذي باشر في تقسيم العمل، فإن العنصر الفكري يأخذ شيئا فشيئا أهميته، وتبدو هذه الأهمية في عمل لابد أن يكون متخصصا يحترم القواعد ويراعي الأصول من أجل اندماجه في العمل الجماعي.

أما الشروط الأخلاقية والتقنية لهذا الاندماج فتندرج في سياقات نفسية جسدية لا يتم تمثّلها بسهولة. [20]

والطفل إنسان منعزل في طريقه إلى الاندماج ولابدّ له أن يمر بهذه السياقات لكي يحقّق اندماجه المناسب، وغنيّ عن البيان أن العائلة والمدرسة تساعدانه في ذلك[21]

هذه المساعدة الاجتماعية تستطيع بل ويجب أن تعمل بطريقة تختصر، وتكمل عملية اندماج الطفل ،فهي لا تستطيع أن تلغيه .

ولكي ندرك مراحل ذلك الاطراد نتابع الخطوات التالية :

-الطفل عندما النّور ، تكون الأشياء و الأشخاص والأفكار منتظمة حوله في ثلاثة عوالم غريبة عنه. [22]

فيرى بالنسبة إليه شيء يلهيه ويسلّيه كما يسلّي المصباح المتدلّي فوق سريره ،إنّها تدعه يخدش خدّه وذلك شيء آخر لم يندمج بعد في ذاته .

غير أنّه يبدأ على الأقلّ يشعر حوله بعالم من الأشياء ممثّلا بيده ،بأصابعه ،بمصّاصته ،و بالمصباح المتدلي فوق سريره في هذه المرحلة ليس لديه بعدُ أيّ إدراك لعالم الأشخاص. [23]

وشيئاً فشيئاً يكتسب خبرة في عالم الأشياء ،فبصره يبدأ يعرف الوجوه ،إنّه يعرف وجه أمه أوّلاً بالطبع وجه أبيه ووجه إخوته و أخواته ،وهذه الوجوه جميعها تبدأ في أن تشكّل من حوله عالم الأشخاص الغريب .

بيد أن اطمئنانه إلى هذا العالم لم يأخذ مداه بعدُ حتّى يكون له من العمر ثلاث أو أربع سنوات ،و يكفي ندعه وحيداً على الرّصيف بالقرب من عتبة منزل العائلة ،لنرى كيف ترتسم في الحال على وجه علامات كآبة الوحدة الّتي يشعر بها أمام المارة الّذين لا يعرفهم. [24]

وحتّى في سنّ السادسة، يعدّ يوم دخول المدرسة بالنِّسبة إليه تجربة قاسية جدًّا في عالم الأشخاص غريب عنه، وهو لا يندمج إلاّ تدريجياً، وشيئاً فشيئاً و تبعاً لنقطة تحدُّدها درجة ألفته الاجتماعية،إذ هذه الدرجة

---

[20] ميشال زكريا- بحوث ألسنية عربية-ص68

[21] المرجع نفسه- ص68

[22] ميشال زكريا-- بحوث ألسنية عربية- ص69

[23] مالك بن نبي-لبنان –مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي- بيرون-دار الفكر –دط-ص26

[24] المرجع نفسه- ص27

تتفاوت بين الأطفال لأسباب لم يكن حصرها بأجمعها . ولكن يمكن أن نصنفها ربّما وفق لنظرية (يونغ)* فعل بالنسبة لنموذجيها. [25]

فالمنفتح يكتشف عالم الأشخاص بسرعة أكثر من النموذج المغلق ، و هذا الأخير يكتشف ربّما بسرعة أكبر عالم الأفكار ، ولكن دون أن يختصر المراحل .

غير أن اكتشاف عالم الأفكار يأتي دائما بالنسبة لكلا النموذجين بعد اكتشاف عالم الأشخاص. [26]

واندماج الطفل في المجتمع هو بيولوجي و منطقي في آن واحد ،إنه يشتمل على أعمار ثلاث :

1. العمر الذي يكتشف فيه تلقائيا عالم الأشياء ، و هو يلعب بأصابعه و بمصاصته .
2. العمر الذي يكتشف فيه تدريجيا عالم الأشخاص و هو يتعرّف فيه على وجه أمّه بادئ الأمر .
3. العمر الذي يكتشف فيه أخيرا عالم الأفكار، وهذا الكشف في الأخير هو الذي يهمّنا أن نتناوله هنا بالتحليل .

إننا نعلم أن اكتشاف الأشياء عند الطفل إنما يتم بامتلاكها ، و الرابطة التي تقوم بينه و بينها رابطة غذائية، فهو يحمل السيئ تلقائيا إلى فمه .

غير أن اكتشافه لعالم الأشخاص يتم بمقدار ما يرتبط بها بعلاقات عاطفية ثم اجتماعية. [27]

و الأمر نفسه في دخوله عالم الأفكار ، إذ يبدأ من اللحظة التي يتمكن فيه من تكوين روابط شخصية مع مفاهيم تجريبية. [28]

إن علينا أن نرى طفلا يفشل في مسألة صغيرة لنقدّر المجهود المصحوب باليأس أحيانا في اقتحام باب هذا العالم. [29]

هذه المأسويات الصغير تمر على العموم دون أن تتفطن لها الأسر و المدارس غير أن الطفل يتذكر أحيانا أنه بعد أن اصطدم بصعوبة عدة مرات دون أن يقهرها يكشف له يوم تفكيره وعقلها سبيلا لقهرها فيجد الحل وحده. [30]

عندما يعبر الطفل عالم الأفكار يضع قدمه في محيط ثقافي و أحيانا في أنظمة إيديولوجية ، لها من خصائصها ما يفصل بينها و بين المجتمعات المحايدة أو الخامدة .

---

*كارل جوستاف يونغ :عالم نفس سويسري (1875م-1961م)كان من أتباع فرويد ثم انفصل عنه سنة 1913م ،وهو صاحب نظرية النماذج المثالية archetypes التي تكوّن (اللاّواعي الجماعي) و الّتي تأتي نتيجة التجربة البشرية عبر العصور .

[25] مالك بن نبي-- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي- ص27

[26] مالك بن نبي- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي- ص27

[27] المرجع نفسه – ص 27

[28] مالك بن نبي – مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي- ص28 .

[29] المرجع نفسه – ص28 .

[30] مالك بن نبي – مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي –ص 28.

هذا التغيير النفسي يكشف له عن أفاق جديدة ، و أبعاد لا تخطر له ببال إذ يحول هذا الاكتشاف كيّانه النفسي ، فإن كيانه الجسدي يتحول هو الآخر ، إن للأفكار أثر حيويا يميّز حتى من حيث المظهر ، الشخص الأموي من ذلك الذي استعمل الحروف الأبجدية لقراءة فكرة أو لتعبير عن فكرته .

ينبغي أن نلاحظ هذه الحقيقة في بادئ الأمر في عملية اندماج الطفل من انجل نستطيع عقد المقارنات الضرورية ن مع علامات الطفولة في سجل النضج. [31]

أن السمة البارزة لدى الطفل في سنينه الأولى، هي فمه المفتوح قليلا المستعد لتلقف و مص أي شيء لكن كل ما تقدم في السن إن فمه ينغلق بتأثير دوافع داخلية .

ويتوافق هذا التفصيل الجسدي مع مرحلة معينة من تطوره النفسي ، فهذا التفصيل لحظة من لحظات عملية الاندماج ، و يمكن أن تتجلى دلالته إما بأن تطابقه على لحظة موازية من عملية اندماج شخص ناضج إذا استطعنا أن نجري مثل هذه التجربة ،و أن نلاحظه بمقارنة بين شخصين بالغين من أسرة واحدة أحدهما متعلم والآخر أمّي. [32]

وهذه الحالة مألوفة خاصة في المناطق الريفية الجزائرية حيث تكون فرص التعليم موزعة بطريقة غير متساوية، حتى داخل الأسرة الواحدة فنحن نجد فيها مثلا أخوين أحدهما و الآخر أمي. [33]

صحيح انه يوجد بينهما تشابه الذي يشير هذا إلى أصلها الوراثي المشترك ، و لكن توجد خارج ذلك فوارق بارزة في النظرات و ملامح الوجه ، التي تنبأ عن اختلاف في الاندماج الاجتماعي. [34]

وبوجه عام ففي سكان بلد ما هناك النموذج الريفي و النموذج المدني بينهما علماء الاجتماع ببعض تفاصيل الملبس. [35]

وحتى ولو كان رجل المدينة في ملابس الريفية يسهل التعرف عليه إذ يبدو كريفي مزيف، و رجل الريف في ملابس الأعياد يبدو مدنيا مزيّفاً.

والشقيقان من أصل وراثي واحد و بيئة ريفية واحدة يتمايزان كذلك بعلامات واضحة جلية ، إذا كان أحدهما قد تردّد إلى المدرسة دون أن يفعل الآخر ذلك ، فدرجة اندماج الفرد الذي يضع قدمه في عالم الأفكار تتحدّد بهذه العلامات. [36]

---

[31] مالك بن نبي – من أجل التغير –سوريا – دمشق – دار الفكر – د ط- 1995- ص 56.

[32] المرجع نفسه – ص 56

[33] مالك بن نبي – مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي –ص 30

[34] المرجع نفسه – ص 30

[35] عبد الصبور شاهين – مشكلة الثقافة –سوريا – دمشق – دار الفكر- 1954- ص 51

[36] المرجع نفسه – ص 52

على أنه بعد هذه الخطوة الأولى فالاندماج يأخذ مداه في سائر مراحل الحياة ، النضج و الشيخوخة، وما بعد الشيخوخة، للتحول شيئا فشيئا نحو عدم الاندماج ، ففي الشيخوخة يبدوا الفرد بعكس خطا سيره، ويعود القهقري في مراحل حياته النفسية، و يترك على التوالي :

1- عالم الأفكار بفقده كل قدرة خلاقة .

2- عالم الأشخاص نتيجة اللامبالاة أو النفور .

3- عالم الأشياء نتيجة الضعف و عدم الإقبال. [37]

2/ **المجتمع والأفكار** : يعتبر علماء الأحياء (البيولوجيون) أن علم الأجنّة يصوِّر المراحل التكوينية للجنس البشري .

أما عند علماء التاريخ فالأمر مختلف، إذ يمكن الإشارة إلى أوجه التشابه بين بعض مظاهر النمو العقلي عند الفرد ، و التطور النفسي ، الاجتماعي للمجتمع وهذا الأخير يمر أيضا بالأعمار الثلاثة: [38]

1/ مرحلة الشيء .

2/ مرحلة الشخص .

3/ مرحلة الفكر .

بيد أن الانتقال هنا من مرحلة إلى أخر ليس بالوضوح الذي نراه عند الفرد فكل مجتمع مهما كان مستواه من التطور له عالمه الثقافي المعقّد .

ففي نشاطه المتناغم هنالك تشابك بين العوالم الثلاثة : الأشياء والأشخاص والأفكار. [39]

وغني عن البيان أن خطة هذا النشاط مهما كان بدائيا، تنطوي بالضرورة على مسوغات وأنماط تنفيذية ، بواعث المستوى الأخلاقي، وأفكار تقنية ، ولكن يظل هنالك دائما رجحانا لأحد هذه العوامل الثلاثة ، وبهذا الرجحان الذي يظهر في سلوك المجتمع وفكره ، يتميّز كل مجتمع عن سواه من المجتمعات ، فالمجتمع المتخلف ليس موسوماً حتماً بنقص في الوسائل المادية (الأشياء) ، وإنما بافتقار للأفكار، يتجلى بصدفة خاصة في طريقة استخدامه للوسائل المتوفرة لديه ، بقدر متفاوت من الفعالية ، وفي عجزه عن إيجاد غيرها ، وعلى الأخص في أسلوبه في طرح مشاكله أو عدم طرحها على الإطلاق ، عندما يتخلى عن أي رغبة ولو متردّدة بالتّصدي لها. [40]

ووفقا لتعبير الاقتصاديين الدارسين لمشاكل العالم الثالث ، فالأرض هي الوسيلة الأصلح لتأمين (إقلاع) مجتمع ما يمر في مرحلته الابتدائية ، ويتأهب للانتقال إلى مرحلة ثانوية كالصين الشعبية منذ عام 1951 م .

---

[37] ينظر : من أجل التغير – و مالك بن نبي - ص 51

[38] ينظر : مالك بن نبي – مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي –ص 31

[39] ينظر : المرجع نفسه - ص 32

[40] مالك بن نبي – مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي –ص 33

لكننا نلاحظ أن أكثر الأراضي خصوبة في العالم – وتوجد في العراق واندونيسيا – لم تمكن هذين البلدين من الإقلاع. [41]

فهناك فاقة حقيقية في الأفكار تظهر في المجال السياسي والاقتصادي على شكل موانع كابحة، تتوافق من وجهة نظر علم الاجتماع مع الخصائص النفسية ، الاجتماعية التي يتميز بها العالم الإسلامي في الوقت الحاضر .

هذه الصورة يمكن أن تجد تفسيرها لدى المؤرخين والاقتصاديين وعلماء الاجتماع ، كل حسب طريقته في التحليل. [42]

لكننا نعتقد أننا نقدم لها هنا تفسيرا نفسيا اجتماعيا بالرجوع إلى نظرية الأزمة الثلاثة ، والتي سنجد مسوغاتها بسوابق المجتمعات المعاصرة .

وبصفة عامة فعلى محور يمثل سائر مراحل تطور تحتل المجتمع التاريخي معاصرا كان أو في مرحلة محددة .

والتاريخ يسجل منها ثلاثا. [43]

1/ مرحلة المجتمع قبل التحضر .

2/ مرحلة المجتمع المتحضر .

3/ مرحلة المجتمع بعد التحضر .

والمؤرخون يميزون جيدا في العادة بين الوضع الأول والثاني ، ولكنهم لم يهتموا بالتمييز بين هذين الوضعين والوضع الثالث . [44]

فهم يرون أن مجتمع ما بعد التحضر هو بكل بساطة هو مجتمع يواصل سيره على طريق حضارته وهذا الخلط المؤسف يولد أنواعا أخرى من الخلط والالتباس تزيف وتفسد المقدمات المنطقية التي ترتكز عليها الاستدلال على الصعيد الفلسفي ، وعلى صعيد علم الاجتماع ، وحتى على الصعيدين الاقتصادي والسياسي ، عندما يزعم البعض أن استنادا إلى مثل هذه المقدمات يمكن طرح مشكلات البلاد المتخلفة وإيجاد الحلول لها .

وقد يستغل هذا اللبس أحيانا المتخصصون في الصراع الفكري عندما يتولون هم أنفسهم أو يكلفون احد تلاميذهم محاولة إقناعنا في قياس منطقي خاطئ يفشل الإسلام في بناء مجتمع متقدم . [45]

ولكي نزيل هذا اللبس نقول، بان مجتمع ما بعد التحضر ليس مجتمعا يقف مكانه بل هو يتقهقر إلى الوراء بعد أن هجر درب حضارته وقطع صلته بها. [46]

---

[41] المرجع نفسه- ص 33

[42] مالك بن نبي – مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي –ص33.

[43] المرجع نفسه ، ص 34.

[44] ينظر : مالك ابن نبي – من اجل التغيير –ص 59 .

[45] المرجع نفسه – ص 59 .

[46] مالك ابن نبي – مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي –ص35 .

وابن خلدون الذي دون بعد قرن مكن سقوط بغداد وقبل قرن من سقوط غرناطة هذه النقطة الخاصة بانقسام دولة الحضارة الإسلامية اليقظة التي ابتدأ منها عصر ما بعد الموحدين ، أي عصر التخلف الحضاري في العالم الإسلامي[47].

وبتتبعنا لمسيرة هذا المجتمع منذ نشأته التاريخية المحددة بالتقويم الهجري، يمكن تكوين فكرة عن المراحل التي اجتازتها ودلالتها النفسية الاجتماعية .

في الأصل كان مجتمع قبليا صغيرا، يعيش في شبيه الجزيرة العربية، وفي عالم ثقافي محدود ، حيث كانت المعتقدات نفسها تتمحور حول أشياء لا حياة فيه ، إنها أوثان الجاهلية[48].

فالبيئة الجاهلية تمثل أصدق تمثيل هو في عمر (الشيء)، و يجب أن نلاحظ إضافة إلى ذلك أنه في هذا المستوى من مرحلة ما قبل التحضر فإن عالم الأشياء يكون هو نفسه شديد الفقر و تكون الأشياء فيه بدائية كالسّيف و الرّمح ، أو الوتد و الكنانة و القوس و السّهام و الجمل و الحصان والسّرج دون الرّكاب، أو مزوّد بسند خشبي بسيط (هذا الركاب الحديدي سوف يخترعه الملهب بن أبي صفرة فيما بعد)، والخيمة، والأدوات المنزلية الهزيلة المقرونة بحياة البداوة.[49]

وعلى كل فإن الشيء يسترد سيطرته على الإنسان في مجتمع ما بعد التحضر، حيث يتمتع هذه المرة (شأنه شأن كل مجتمع استهلاكي) بعالم مثقل بأشياء، بيدا أنها أشياء خامدة، وخالية من الفعالية الاجتماعية.[50]

و مهما يكن من أمر فإن عالم الأشخاص في المجتمع الجاهلي قد انحصر في حجم القبيلة ، فيما عالم أفكاره ، قد تمثل في وضوح في تلك القصائد المتعلّقة الشهيرة بالمعلّقات، وهو بالإجمال – شأن عالم أشخاصه – عالم محدود يستقي منه الشاعر الجاهلي أبياته البرّاقة ليشيد بمجد قبيلته و انتصارها في أحد الفصول الملحمية التي حفظتها ذاكرة التاريخ تحت اسم " أيام العرب " ويتغنى بذكرى حبيبته ، أو يبكي كالخنساء ، بطلا هوى ، أو يسعى إلى تخليد اسم كاسم حاتم الطائي لجوده ، وحسن ضيافته.[51]

هكذا كان ووجه ذلك المجتمع الجاهلي المنغلق على نفسه ، و الذي كانت تتلاشى على أرباضه حركات المد و الجزر التاريخية لأمم العظيمة التي جاورته :

الإمبراطورية البيزنطية ، و الإمبراطورية الفارسية ، و مملكة الحبشة في الجنوب.[52]

---

(47) مالك ابن نبي –من أجل التغيير –ص 60 .

(48) مالك ابن نبي – مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي –ص 37

(49) المرجع نفسه –ص 37

(50) مالك ابن نبي– نظرات في الفكر الإسلامي –ص43 .

(51) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي – مالك ابن نبي – ص38 .

(52) المرجع نفسه – ص 38

وفجأة أضاءت فكرة في غار ، غار حراء ، حيث مُنْعَزَلٌ يقوم فيه متأملا و حمل وميضها رسالة بدأت بكلمة "اقرأ".[53]

مزقت هذه الكلمة ظلمات الجاهلية ، وقضت على عزلة المجتمع الجاهلي ، و رأى النور مجتمع جديد متفاعل مع العالم و مع التاريخ ، فشرع بهدم ما بداخله من حدود قبلية ليؤسس عالمه الجديد من الأشخاص حيث كل أضحى حامل رسالته، وليبني علما ثقافيا جديدا تتمحور فيه الأشياء حول الأفكار في مبدأ الأمر، وعندما بدأت عملية اندماج المجتمع الإسلامي في التاريخ تأسس عالم الأشخاص فيه على نموذج أصلي، تتمثل بطائفة الأنصار والمهاجرين المتآخيين في المدينة.[54]

ولقد جسد هذا النموذج الفكرة الإسلامية ، إذ أضحى النموذج المحتذى و المستلهم ، والذي منه تُجتنى الذكريات التي ألهمت الكتابات الأولى في العالم الإسلامي.[55]

وجميع خطوات المجتمع الجديد نحو عالم الأفكار – أي نحو عمر الفكرة – مرت عبر عالم الأشخاص هذا – أي عبر – عمر الشخص.[56]

2- **الحضارة والأفكار**: إن الحضارة ما هي إلا نتاج فكرة جوهرية تضع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ.

ويبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج الأصلي لحضارته، إنه يتجذر في محيط ثقافي أصلي يحدد سائر خصائصه التي تميزه عن الثقافات والحضارات الأخرى.[57]

إن الفكرة المسيحية قد أخرجت أوربا إلى مسرح التاريخ ، ولقد بنت عالمها الفكري انطلاقا من ذلك و مع عصر النهضة ساعدت اكتشافها العالم الإغريقي وتعرفت إلى سقراط، باعث الأفكار وأفلاطون، المؤرخ لتلك الأفكار.[58]

غير أن هذا العالم الذي التفتت به ثانية، وهي تقتفي أثار الحضارة الإسلامية قد اكتست صبغة مسيحية.[59]

إن دور الأفكار في حضارة ما لا يقتصر على مجرد الزّينة والزّخرفة كزخارف المدفأة في المنزل مثلا، فهو لا يصبح كذلك إلا حينما يصبح المجتمع في عصور ما بعد التحضر.[60]

---

(53) مالك ابن نبي– نظرات في الفكر الإسلامي –ص:70 .

(54) مالك ابن نبي– نظرات الفكر الإسلامي –ص : 71 .

(55) ينظر : المرجع نفسه– ص 71-72

(56) المرجع نفسه – ص 72.

(57) مالك ابن نبي – مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي –ص 39

(58) المرجع نفسه – ص 36.

(59) مالك ابن نبي – مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي –ص 39.

(60) ينظر : مالك بن نبي– نظرات في الفكر الإسلامي –ص 72.

ففي فترة اندماج مجتمع ما في التاريخ يكون للأفكار دور وظيفي ، لأن الحضارة هي القدرة على القيام بوظيفة أو مهمة معينة. [61]

ويمكن تعريف الحضارة في الواقع بأنها جملة العوامل المعنوية و المادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضوٍ فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوّره.

فالفرد يحقق ذاته بفضل إرادة و قدرة ليست نابعتين منه ، بل و لا تستطيعان ذلك ، وإنما تنبعان من المجتمع الذي هو جزء منه[62] و إذا ما ركن لقدرته وحدها وإدارته وحدها فإن هذا الفرد المنعزل و المنقطع عن كل اتصال بجماعته يصبح قشة ضعيفة ، رغم كل وسائل التزين الأدبي التي يستعين بها الكاتب الروائي ليحيط به حياته. [63]

فالحقيقة شيء و الصورة الأدبية شيء أخر ، و منذ نشر (دانيال دي فوى) قصة (روبنسون كروزو) فإن الأجيال التي قرأتها نسيت المغامرة المحزنة لذلك البحار الإنجليزي المسكين الذي وجد بعد أربع سنوات من غرق سفينته في جزيرة جرداء في وسط المحيط ، و أعيد إلى إنجلترا و هو يرتدي ملابس مصنوعة من جلد الماعز الوحشي، إن هذه المغامرة هي التي ألهمت دانيال دي فوى بيدا أنها بقيت طيّ النّسيان. [64]

إن إرادة المجتمع و قدرته تضفيان صفة الموضوعية على وظيفة الحضارة – و هي جملة العوامل المعنوية والمادية اللازمة لتنمية الفرد – و هي نفسها تتموضع في شكل سياسة في صورة تشريع يمثلان إسقاطا مباشرا لعالم الأفكار على الصعيد الاجتماعي و الأخلاقي ، و هي تتغيّر حسب الأطوار التي تمرّ بها الحضارة. [65]

و تنشأ إرادة المجتمع التي تموضع العوامل المعنوية عند نقطة الصفر، إنها تكون في أعلى درجاتها في المرحلة الأولى الرّوحية حيث المجتمع الوليد يواجه مشاكله بضغط حاجاته من جهة، وباستخدام وسائله المتواضعة بتغطية أوسع قطاع ممكن فيها من جهة أخرى. [66]

إنّه الطّور الحضاري الموسوم بأروع أشكال التقشّف التّي كان الرّسول صلّى الله عليه و سلم مثلها الأعلى في حياته الشّخصية و العائلية ، و هو يتميز كذلك بالمواقف الأشد بذلا من صحابته - كأبي بكر و عثمان رضيّ الله عنهما – الذين و ضعوا ثرواتهم في خدمة الإسلام و المجتمع الإسلامي. [67]

---

[61] المرجع نفسه – ص 72.

[62] مالك ابن نبي - مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي –ص 39

[63] مالك ابن نبي – مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي –ص 41

[64] مالك بن نبي– نظرات في الفكر الإسلامي –ص44

[65] المرجع نفسه – ص44.

[66] مالك بن نبي – من أجل التغير –ص 57

[67] المرجع نفسه – ص 58

3: نموذج تطبيقي لـ " ابن النبي ":

بعد الحديث الطويل عن الملكة اللسانية واكتسابها عند المفكر الجزائري " مالك بن نبي " قمنا بتوظيف نماذج تطبيقية عن الملكة اللسانية تبيانا للفكرة وفائدة العامة.

اللّغة ملكة فطرية:

اللّغة ملكة فطرية اعتبارها مجموعة القيم الثقافية التي يكون للبيئة الدور والأثر البارز في تكوينها.

لنا مثال عن اللغة وكيفية تطبع الإنسان للواقع الذي يعيش فيه « منذ عدة أيام، كنت في أحد مكاتب البريد، أتحدث إلى موظف الجالس وراء النافذة، باللّغة العربية، وكان في كل مرة (يجيبني) باللغة الفرنسية، لن أقول هنا كلّ انطباعاتي حول هذا الحوار أمام نافذة في إدارة رسمية. إذ يمكن أن نوجزها في كلمة واحدة: « أتمنى على الإدارة الجزائرية أن تعتني اعتناء أكثر بالعلاقات العامة لديها ».

هذا التمني لا يقتصر على الموظف البسيط القابع وراء نافذته ،بل يتعدى ذلك إلى الموظف المحترم الجالس وراء مكتبة الوقور.

ولا يتعلق الأمر هنا بخلل في طريقة التعامل، فقد بدا لي الأمر أشد شذوذا لأن هذا الرجل الذي كان يَصُمُ أذني من وراء نافذته بفرنسيته الركيكة كان قد توجه بالحديث لتوه إلى أحد زملائه ببعض كلمات عربية سليمة».[68]

وهكذا نجد المجتمع يتكلم غير لغته وذلك يرجع لظروف الاجتماعية والسياسية التي عاشها وكلها ترجع إلى بيئته وثقافته.

تحصيل الملكة:

إن تحصيل الملكة في نظر مالك بن النبي يمر بمراحل أو حالات مثلنا بمثال عن طفل صغير.

« والطفل إنسان منعزل في طريقه إلى الاندماج، ولابد له أن يمر بهذه السياقات، كما اندماجه المناسب. وغني عن البيان أن العائلة والمدرسة تساعدانه في ذلك.

هذه المساعدة الاجتماعية تستطيع، بل ويجب أن تعمل بطريقة تختصر وتكمل عملية اندماج الطفل، فهي لا تستطيع أن تلغيه.

فلنتابع ببساطة خطواته كي ندرك مراحل ذلك الاطراد:

– عندما يرى طفل النور: تكون الأشياء والأشخاص والأفكار منتظمة حوله، في ثلاثة عوالم غريبة عنه.

– فيده بالنسبة إليه شيء، تسلّيه كما يسلّيه المصباح المتدلي فوق سريره، إنها تدعه يخدش خده، وذلك شيء أخر لم يندمج بعد في ذاته ».[69]

---

[68] مالك ابن نبي– مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي –ص 42

[69] مالك بن نبي – من أجل التغيير– دار الفكر –دمشق – سوريا – دط –1995– ص : 59.

هنا نستنتج أن اكتشاف الأشياء عند الطفل إنما يتم بامتلاكها وشيئا فشيئا يكتسب خبرة في عالم الأشياء، فبصره يبدأ يتعرف على الوجوه، إنه يعرف وجه أمه أولا بالطبع، ووجه أبيه ووجه أخوته وأخواته، وهذه الوجوه جميعاً تبدأ في أن تشكل من حوله عالم الأشخاص الغريب. [70].

فعندما يعبر الطفل عالم الأفكار يصنع قدمه في محيط ثقافي، وأحيانا في أنظمة إيديولوجية، لها من خصائصها ما يفصل بينها وبين المجتمعات المحايدة أو الخامدة.

تخصيص الملكة:

« لنفترض أن الحيوانات لها أصوات ولها مجموعات تتحاور فيما بينها عن شؤونهم، وقد أشار عليهم بعضهم أن يعطلوا غرائزهم، ترى من يتكفل لهذه الحيوانات شروط حياتهم، إذا تعطلت غرائزهم ؟

وهكذا نكون قد قررنا بإجماع ضمني تعطيل اجتهادنا في نشاطنا الفكري ونشاطنا الدنيوي والأخروي، فتعطيل الفكر هو في الصورة التي أشرت إليها مما جرى في الجزائر فيما يخص القرآن، وبدا ذلك بكل أسف مسلكاً تعطل فيه النشاط الفكري في العالم الإسلامي كلّه ». [71]

وهنا يتضح لنا أن ابن نبي اهتم بالملكة اللّسانية من حيث أنها خاصة بكل إنسان أو فرد، ويعني ذلك قدرته على كيفية تحصيل هذه اللّغة وكيفية استخدامها في حياته اليومية.

فساد الملكة:

يقف " مالك بن نبي " عند نقطة أساسية مفادها أن اللّغة تتعرض إلى أمراض، وهذا ما جعله يبرزها، حيث يقول: « ومما زاد الطين بلّة في تلك الفترة، أن الجبهة الشعبية كان لها على الحياة العامة الجزائرية نفس التأثير الذي كان لها بفرنسا وبوجه خاص، لقد فتحت في الجزائر محابس الكلام، فاستولى على كل فرد، داء الكلام، كلامه، أ, كلام جاره... وإنه لداء قتال ». [72]

أي أنه أثناء الفترة الاستعمارية ونتيجة الاختلاط وتزاوج اللّغتين " العربية والفرنسية "، أصبح هناك فساد في اللّغة أو ما نسمّيه بالملكة اللسانية.

ويضيف " مالك " إلى كلامه أنه منذ استولى علينا مرض الكلام فقد تكبّدتنا الخسائر التي لا تحصى في الرصيد اللّغوي، بحيث أصبح المجتمع سفينة تائهة، على عكس ما مضى، كانت الأفكار نقية صافية والنوايا خاصة صادقة، والقلوب رحيمة خيرة، فاستحال كل ذلك إلى الخلط والخبط والتباغض والانتهازية والثرثرة. [73]

---

[70] المرجع نفسه- ص مالك بن نبي –ص: 42

[71] مالك بن نبي- مجالس دمشق-دار الفكر- ط 1- 2005- ص 34.

[72] مالك بن نبي– مذكرات شاهد القرن –ص.73

[73] المرجع نفسه ص 263

خاتمـــة

و في نهاية هذا المقال يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية :

- أن المجتمع لا يمكنه مواكبة أو مسايرة الحضارة إلا إذا كان الفرد يملك قدرات لغوية أو ملكات فكرية هائلة تساهم في ذلك النّمو أو التّطور.
- الطّفل يتدرّج في عوالم ثلاثة، الأشياء، الأشخاص، الأفكار.
- الشيخوخة انحدار من عالم الأفكار إلى الأشخاص إلى الأشياء .
- مجتمع ما قبل التّحضّر، و ما بعد التّحضّر لا يفتقر للوسائل و إنما للأفكار.
- الحضارة هي القدرة على القيام بوظيفة أو مهمة معيّنة.